فصل رابع

آباء وأرباب القارورة

كما ترون، صار يحلو لي ان اتخيل (آدم) كقصر عتيق قشطت عنه ريح الزمان زينته وعرته من فخامته، ولكن (امرأة القارورة) بسحرها ومهارة فنها أعادت إليه أمجاده ونفخت الروح في قاطنيه وأظهرت إلى العلن جميع خباياه.

ذات مساء ربيعي بارد، زارني (آدم) في غرفتي في حي (اوفيف). كنا جالسين في ضوء خافت تتخلله أنغام موسيقى جبال الأطلس تنبعث من الجهاز. هذه المرة اصر على رفض مشاركتي نبيذي مرتضيا ببضعة انفاس من الحشيش المغربي. ها هو (آدم) يعود إليَّ بعد سبعة اعوام من شبه القطيعة فيما بيننا. كنا نلتقي بين حين وآخرلنتبادل الصمت والكلام. كنت أنا فقط من يتحدث عن آخر أخبار الوطن وتطورات الحرب وأطلعه على منشورات الأحزاب وأسمعه آخر النكات الداعرة ثم في الأخير أحكي له عن مغامراتي الليلية وعن لوحاتي. كان أمام هذا السيل من الكلام لا يبادر بشيء سوى أن يهز رأسه ويهمهم، ثم يخرج ورقة وقلما ويشرح لي آخر ما تعلمه عن استخدامات الحاسوب ومجالات تأثيره المتزايدة.

هكذا هو (آدم) ما تغير منه إلا شكل تعبيره. يبقى دائماً ذلك النبي الذي يكافح رعب إحساسه بالكارثة باللجوء إلى جنة يخلقها في خياله ويؤمن بوجودها ويعمل ليل نهار ليتدثر بنعيمها، والآن فالحاسوب هو جنته، وهو أداة تغيير العالم وإنقاذه. وقد لاحظت أنه كلما اشتدت أهوال الحرب وتلاحقت أخبار كوارثها، انكب أكثر فأكثر على حاسوبه وتعمق انطواؤه في بيته. في أثناء زياراتي له كنت أراه مرتبكاً وقد بدا الشحوب على وجهه، فأعرف أن الكوابيس قد اشتدت في اقلاق نومه. أما أنا فقد بقيت عكسه، فكنت ازاء اشتداد الكارثة أنطلق في عربدتي ثملا محشوشاً أفتش عن خلاص وراحة ونسيان في عيون ناس وأحضان نساء. وفي ثنايا أجسادهن أجد مأواي ونعيمي.

ها هو الآن معي في غرفتي، وبين حين وآخر كنا نكسر الصمت ببعض العبارات، بلا حماسة وعلى سبيل المجاملة، إذ كنا معاً غارقين في فكرة خفية واحدة اسمها "إمرأة القارورة". في اللحظة نفسها التي عزمت فيها على الإفصاح عن رغبتي في فتح الموضوع، رمقني (آدم) بنظرة خاصة لم أدرك مغزاها! نظرة ذكرتني بذلك اليوم، بعد أن قادنا قطار الزمن إلى مدينة (جنيف) قبل سبعة أعوام، وحصلنا على أوراق إقامة. يومها كنا نتمشى على جسر مطل على ملتقى نهري (الرون) و(آرف). رمى (آدم) حجراً في الخط المتشكل من التقاء النهرين، وقال لي :

"انظر يا صاحبي إلى هذين النهرين، كيف يفقد (الآرف) لونه وهويصب في نهر (الرون)، ولا أعتقد أن أحدنا مستعد أن يصب في الآخر ويفقد نفسه فيه، إذن لنفترق يا صاحبي.. في أوراق اللجوء هذه وبين شوارع هذه المدينة سيشق كل منا مجراه الخاص".

أرى (آدم) الآن قد تسللت يده بهدوء إلى الحقيبة السوداء. وضع القارورة في حضنه، وراحت أصابعه تفتح الغطاء. ارتسمت على محياه ملامح قابلة عجوز تخرج وليداً من رحم. قبل أن يرفع الغطاء، رفع نحوي وجهه الذي بدا لي مغالياً في إلفته واعتياديته، كما لو كان وجهي في مرآة. أشد ما أمقت أن أكون شبيها به. صحيح أني شاركته في جميع تفاصيل حياته لكني كنت دائماً مختلفاً عنه. حتى تجاربنا المشتركة كانت تؤثر فينا بشكل مختلف. أمضينا أعوام المدرسة، تأتينا المعلومات معجونة بالخوف والتهديد والضرب المبرح. أستاذ (عباس) معلم الدين والتاريخ، كان يختار تلميذاً جديداً يوقفه أمامنا ليكون لوحة يشرح عليها سير المعارك الحربية. كانت كفه المرتجفة تنزلق على جسم التلميذ لتشير إلى جيش الكفار النازل من الرأس وجيش المؤمنين الصاعد من الفخذ، ليلتقيا عند الصرة في معركة فاصلة. وكان هذا الأستاذ يأمر التلاميذ المذنبين بأن يصفع أحدهما الآخر بقوة، ومن يتوانى سينال منه عقابا أشد. لكن النتيجة : آدم مسالم وأنا عنيف. كم من المرات تدخلت لإنقاذه من براثن عصابة من الأشقياء. أنا أيضاً كنت شقياً، وعندما لا أجد أحدا يهاجمني، كنت أسأم وأختار تلميذاً مشاكسا أهاجمه.

* * *

شرع (آدم) برفع الغطاء بمهارة مفتعلة، فنفث من القارورة ضباب خفيف ورائحة مختلطة من عطور شرقية ونكهة بشرية. خلال لحظات كان الضباب يتجسد بشكل كائن غامض، وتناهى صوت أنثوي هامس، مزيج من حفيف حشرة وهمهمة طفل يغفو وفحيح أفعى وتنهدات صبية. لم يسبق لي أن رأيت مشهداً بذلك القدر من الوضوح والتفصيل. عبر جو الغرفة المعتم بدخان سيارات ولفافات حشيش مغربي وأنفاس مخمرة ببهارات الشرق ونبيذ سويسرا، تجلت (هاجر) كواحدة من آفات جمال خرافي طالما صنعت صورتها من ذكرى (سجينة) ما كفت عن زيارتي في ليالي حمتي. الآن قد عرفت أن سرٌ رعب المؤمنين لا يكمن في نيران جهنم وحدها، بل في حسرتهم على حرمانهم الأبدي من لذة تلك الحوريات. إني لو ضاجعت إحداهن سوف لن اخرج منها أبدا. سأهجر باقي ملذات الفردوس من أنهار عسل وخمر ولبن وقصور فارهة ومآدب عامرة، وأغور في أعماق حوريتي وأمض خلودي في رعشة سرمدية.

لمحتني فارتسم حياء على محياها وجسدها. مثل حمم فوارة كانت تنتثر خصيلات شعر حنية على نهديها. غطت عينيها برمشيها واسبلت كفيها تحت سرتها، وأمالت رأسها بعفوية امرأة ألفت جلال جمالها حتى أنها نسيته.

التفتت إلى (آدم)، فمط لها شفتيه واشار برأسه صامتا فأطاعت أمره بتلقائية. ناولها من حقيبته السوداء ثوباً شفافاً، ارتدته، ووقفت شامخة بهيبة خاشعة. كان ثوبها أبيض مرقطا تنعكس عليه ألوان سيارات مارقة ومصابيح سينما مقابلة. بدت كالهة بابلية اسقطها التاريخ في عصر أنوار ودخان ومدن مكتظة.

أشار إليها فجلست في وسطنا على وسادة. ثنت ركبتيها على طريقة أميرات العرب، واتكأت بظهرها على النافذة. توهج شعرها بالتماعات حمراء وخضراء وفضية، ثم ناولها لفافة وكأساً، هامساً لها : "احكي".

جرعت من النبيذ واستنشقت بضعة أنفاس. رفعت رمشيها لتدع سيول عينيها تجتاح فضاء الغرفة. راحت ترسم بأصابعها لوحة غرائبية من دخان متصاعد. كان لسانها يتحرك بين شفتيها كقائد يوجه فرقة كلام في حنجرتها. بدا صوتها مزيجاً منسجماً من ألحان متناقضة تنشد في دور عبادة وعهر وقصور أمراء وأكواخ رعاة. راحت تحكي وتحكي حتى أواخر الليل. خفتت الأضواء والأصوات في الشارع، وتسلل نسيم إلى الغرفة عابقاً بروائح فجر مُبلل بمياه بُحيرة "ليمان " المجاورة.

* * *

لم أنتبه كيف جرى الأمر. كما لو كنت غريقاً امضى عمره في الاختناق ومكافحة الموت، وجد نفسه فجأة يطفو على جرف جزيرة تائهة! هكذا وجدتني وحيدا في الغرفة أطفو على جسد (هاجر)!

أين اختفى (آدم)..لا أدري؟!

كانت مستلقية عارية وأنا راكع بجانبها. كنت منكبا على رسم لوحة خليعة على صفحة جسدها. إبهامي كان ينساب بهدوء حذر على ملامحها بدءا بجبهتها، حاجبيها، عينيها، أنفها، شفتيها، حنكها. هبطت إلى عنقها وكتفها، وأنهيت رسم ذراعيها وأصابعها، وصعدت إلى نهديها، وظللتهما حتى انتفخت واحمرت حلمتاها. من أجل إضفاء مسحة أخيرة، رحت بشفتي ألونها وابرز ظلال سرتها وعانتها وفخذيها حتى أصابع قدميها. كان لها جسد مفصل على مقاييس ذوق حلمي. لم تكن بشرتها سمراء ولا شقراء إنما بلون الخبز الحار. ولم تكن نحيلة لتوحي بقحط وشح وفُقر،ولم تكن سمينة لتوحي بنهم وشراهة وإسراف. كانت في الوسط، كأن الذي خلقها صنعها من اجساد اجمل مخلوقاته : قامة معتدلة قليلة الامتلاء ونهدان بحجم رمانتين كبيرتين، تزينهما حلمتان منتعظتان رطبتان بلون الشاي. خصرها دقيق، وردفاها وفيران ثريان على هيئة إجاصة مفشوقة، وعندما تحسستهما بأصابعي تموجا بارتجافات كصفحة بحيرة مسها نسيم.

جمالها أعاد إلى ذاكرتي ما حدثني به (آدم) يوم التقاها لأول مرة منذ اسابيع. قال إن سؤالا قد انبثق في رأسه : اين يكمن الالهي في الإنسان؟

أمضى عمره وهو يفتش في الناس عن العظمة المقدسة الكامنة في أعماقهم. كان يحاول أن يتجاوز خطوط العمر المرسومة على وجوههم وملامح الزمن والأسى والقسوة والكبرياء والوضاعة وأوهام الكائن

الأعلى والأدنى. كان يغوص عبر ظاهر البدن، يفتش في أعماقه عن الخالد، عن الذرة المتوهجة، عن الروح المطلقة التي يتكور حولها البدن الإنساني بأحشائه الهالكة وعناصر ضعفه وفنائه، يحاول أن يزيل عن الوجود عبثيته وعن الموت رُعبه، يتخيل الروح الخالدة شبيهة بعارضة أزياء تختبىء بين زمن وآخر خلف ستار الموت لتخلع جسداً عتيقا وترتدي جسداً جديداً تعرضه أمام احتفال الحياة لأعوام معدودة، ثم تعود من جديد تختبىء وراء ستار القبر بانتظار جسد آخر.

وها أنا اشاهد عارضة الأزياء التي حدثني عنها صاحبي، ولكن ميزة (امرأة القارورة) هي أنها لا تبدل ثوبها الجسدي بل تلبسه من جديد في كل مرة تخرج فيها من القارورة. روحها خالدة، وجسدها خالد أيضا، تجدده وترتديه منذ آلاف الأعوام. عندما تختبىء في القارورة تستريح روحها ويغتسل بدنها بمياه الشباب والديمومة. في كل مرة تعود إلى القارورة كانت تموت، وفي كل مرة تخرج منها كانت تولد. الموت لم يكن نهايتها، والميلاد لم يكن بدايتها.. ما هما إلا نقطتان في دورة عادتها الأزلية، تفني العتيق وتحيي الجديد، وتجعل الروح في انسجام أمثل مع الجسد.

استلقيتُ فوقها. قبلت عينيها واحتضنت ثديها ورضعت. طعم حليب العشيقة أحلى من حليب الأم. إنه مزيج من نكهات حنان وفُسق. تركت أصابعها تنساب لتولجه في منجم رطب حار. مع انتشار حرقة الشبق، كانت رؤى حكايتها تتنامى في خيالي. كانت تعض بأسنانها شفتي وتهصر بكفيها لحمي، وروحي تنزلق بالتدريج في متاهات متصاعدة. فحيحها الوحشي استحال إلى رموز صوتية تختصر تاريخ أعوام وأعوام إلى لحظات لذة سرمدية.

مع اهتزازات جسدينا كنت أحس بجسمي يزداد ثقلا وينجذب بقوة خفية نحو أعماق هوة كونية سرية. كأني ذبت إلى سائل تبتلعه جفرة فضائية مركزها جسد (امرأة القارورة). انحدرت في متاهات أشبه بغيبوبة الساقط في هاوية. كزمن حلم يختصر آلاف الأحداث والصور في بضعة أعشار الثانية، وكحياة (ميكروب) لا تتجاوز لحظات وتبدو له ربما أغنى وأطول من حياة انسان... هكذا عشت حياة واحد من اسلافي خلال زمن، كل عام منه يعادل لحظة شهيق وزفير من فحيح (هاجر).

* * *

كنت طفلا مستلقياً جنب أختي، بين خرق عطنة وفي أحضان عربة خشبية مهترئة تتمايل بنا بتناغم مع تمايلات أرداف بغال تجرها، وهي تطوف بنا عبر السهول والقرى والمدن المنتثرة على ضفاف دجلة والفرات. على بعد بضعة خطوات كانت تتقدم العربة كلاب ذئبية تتشمم أتربة دروب وعرة بحثاً عن آثار قوم هاربين. كانت هذه الكلاب، بين حين وآخر، تلتقط أشياء لا مرئية من بين تجاويف التربة ثم تتشاجر بعنف كأنها تمزقها بين أنيابها.

كنت طفلا حينما بدأت أسئلة أولى تتسلل كنقاط ماء عبر سقف رأسي :

- "من نحن؟ من هؤلاء الهاربون؟ لماذا نتبعهم مع أمي وأبي منذ أعوام وأعوام؟".

شذرات أجوبة تمكنت من انتزاعها من أمي وهي تفلي شعري بحثاً عن حشرات تائهة في رأسي:

- "امبراطورنا العظيم وأبو شعبنا ومخصب الهتنا الأم "عشتار"، أمر أباك أن يلحق الهاربين ويتقصى أخبارهم. أقسم أبوك أمام ملكنا وآلهتنا وكهنتنا بأنه سوف يُحرم من بركة خصبهم ويُقصى من نسلهم إن لم يخلص في مهمته بتتبع الهاربين حتى نهايتهم المحتومة..".

في ليال، كان الترحال يضطرنا إلى المبيت في قرية هجرها أهلها بسبب طوفان وطاعون، أو في مدينة قد دمرتها قبائل غزاة. لكي يكافح أبونا وحشة المكان ويطرد الرعب من نفوسنا، وبعد أن نؤدي جميعاً صلاة العتمة، كان يجلسنا حوله ويحكي لنا عن الهاربين الذين لا يعرف أحد عددهم أو طبائعهم أو دينهم :

- " أما زعيمهم فإنه رجل يعجز اللسان عن وصفه "!

هكذا يقول أبي، وتتخلل صوته حينئذ ارتعاشة خفية:

- "إنه جبار مهيمن يهابه جميع أبنائه وأتباعه، لا يضاهيه في جبروته وفحولته إلا أبو شعبنا وامبراطورنا الأعظم ومخصب آلهتنا.. يعشق السلاح والنساء، خلف من الأبناء ما يفوق عدد ضحاياه في الحروب.. ما رأى عذراء إلا وكان أول من يخصبها، وما وطأ ساحة حرب إلا وكان سيفه أول ما ينضح دماً فوق ترابها. قامته العملاقة تناطح ذرى اعلى الأشجار، وبشرته سمراء كأديم الأرض، وعيناه بئران بلا قاعين، اما صوته فيأتيك من دواخلك..!

في هذه الأثناء كان يقشعر بدني، فأحدق في وجهي امي واختي بحثاً عن أجوبة لأسئلة لا أستطيع تكوينها وإدراكها. كنت احبس دموعاً حارة بينما يدي تمسك قصبة وتروح تخط على الطين وجهاً غرائبياً شبيها بالذي وصفه ابي. وعلى ضوء النار المتماوج كان ذلك الوجه المحفور يكتسي لونا نارياً وتأخذ ملامحه بالظهور مع الضوء وكأن الحياة قد دبت فيه.

هكذا مع الأعوام وتوالي حكايات أبي، واستمرار كلابنا في لهاثها بتعقب الهاربين وأشيائهم اللامرئية، راحت ببطء سري تنمو في مخيلتي صورة زعيم الهاربين.

والحق أني كنت مثل أهلي، أصلّي بخشوع وقلبي مفعم برهبة أمام صَنمَي ملكنا وآلهتنا، إلا ان صورة زعيم الهاربين شرعت تحتل حيزاً متنامياً في أعماق روحي. كم من مرات احسست بعار ووجل وانا أحدق إلى وجه صنم ملكنا فأرى ملامحه تتغير تدريجاً إلى ملامح زعيم الهاربين.

ذات يوم كنت مع أختي نلعب بعيداً عن ابوينا. كنا على شاطىء الفرات نأخذ طينا احمر ونصنع منه أشكالا بشرية وحيوانية، إذا بنا فجأة نجد أنفسنا قد انكببنا، دون قصد، على صنع تمثال بشري بطول ذراع يشبه رجلا عظيماً، رؤياه جعلتنا نولول باندهاش :

- "هو.. نعم هو!."

كان زعيم الهاربين بذاته..!!

منذ ذلك اليوم، رحنا، أختي وانا، نختلق الأعذار لكي نغيب عن أنظار والدينا. نخرج صنم زعيم الهاربين، نصلي امامه خاشعين مترنمين بأناشيد خضوعنا المطلق له وإيماننا به منقذاً لنا من حيرتنا. صنعنا معه بعد ذلك صنماً لآلهتنا الأم لتتكامل صلواتنا وتتناغم ترانيمنا في خصب وخلود.

* * *

ظلت عربتنا تسير بنا مخترقة اراضي وأعواماً، تقودنا نحو الشباب، وتقود أبوينا نحو الشيخوخة. كلاب ماتت لتخلفها كلاب من نسلها، استمرت في تشممها الدروب وتكالبها على نهش أشياء لامرئية، بغال شاخت ونفقت لترثها بغال تتبع بلا كلل كلاباً ودروباً. ما مر عام إلا وكرر أبي وعده ان يكون عامنا القادم ميعاد نهاية رحلة بحثنا. سنعود إلى عاصمتنا المقدسة " نينوى الموعودة"، بين أحضان قومنا لنحكي لهم أحداث غربتنا الطويلة. سنبتني هناك بيتاً دافئا على ضفاف دجلة من عطايا الأمبراطور مباركاً بخرزة أفعى ومحروساً برأس وعل.

في عصر يوم قائظ، أصر أبي على مواصلة المسيرة رافضاً أن نستريح في ظلال بساتين حمضيات مطلة على النهر. قبل الغروب لاحت لنا أطلال مدينة كأنها تنبجس فجأة من بين الهضاب القاحلة. كانت بقايا قصور خربة عراها الزمان من حيطانها وزينتها وأحشائها البشرية، ولم يبق منها غير أعمدة منتصبة وصخور مبعثرة وتماثيل ثيران مجنحة برؤس بشر وروائح عطنة تهمس عبر الريح بحكايات أقوام غابرة.

توقفت عربتنا قرب نصب ضخم لأسد يزني بامرأة. قالت أمي إنها بقايا مدينة كان يقطنها اسلافنا وقد محقتها الآلهة بعد أن سلطت عليها طوفانات وطواعين وجيوش أعداء، لأنهم بطروا وفسقوا وانتهكوا حرمة الآلهة وقدسية الآباء. أبي تركنا واختفى بين الأطلال بعد أن همس لأمي بكلمات مبهمة جعلت الحزن يرتسم على محياها.

عندما اصطبغت المكنونات بضياء الغسق ظهر ابونا منحدراً بين الآثار وبصحبته شيخ يشبهه وتتبعهما فتاة مليحة فيها الكثيرمن أوصاف أختي، وهي تحمل على ظهرها صرة متاعها.

هكذا تم الأمر بصورة مباغتة ما حسبناها. في ذات المساء تمت طقوس زواجي من ابنة الشيخ، تحرسنا أصنام ملكنا وآلهتنا. بين دموع الوداع وشهقات الدعاء والرجاء، رحلت أختي مع الشيخ حيث تنتظر عربتهم عند الطرف الآخر من الأطلال، ليزوجها إلى ابنه الذي يشبهني والذي أمضى مع أبويه وأخته حياة ترحال وبحث عن هاربين أزليين!

في خيمة بعيدة أمضيت ليلة عرسي سابحاً في بحر لذة تتخلله أمواج حزن، بين أحضان زوجتي وذكرى فراق أختي. عندما شرع وميض السحر يعلو من ضفة دجلة الشرقية ويضفي على المياه حمرة ذهبية فتنعكس

على صفحته هياكل نخيل كجثث غرقى ينبجسون من القاع، ناداني ابي واختلى بي عند الضفاف. دون مقدمات كثيرة قال بصوت مبحوح:

- " هذه الليلة صرت يا ابني رجلا مسؤولا عن ديمومة نسلنا.. الآن انت مؤهل أن تواصل عبء المهمة المقدسة التي اوكلت إلينا. الزمن يا ولدي قد أنهكني والعمر ما عاد يعينني على إتمام المسيرة. ليس امامي غير أن ابقى هنا مع أمك على ضفاف النهر تحرسنا بقايا الأسلاف حتى يوم اجلنا ".

أشار نحو الشمال وقال:

- " هناك ترتمي نينوانا التي فارقناها منذ اعوام واعوام. عليك أن ترحل إليها مع زوجتك لتطلب الغفران من الملك الأب والالهة الأم.. تعتذر عني إذ خذلني العمر وما تمكنت من إتمام المهمة. تتعهد انت باتمامها بعد ان تمنحك الآلهة ومليكنا بركاتهما..

شد على كتفي وأخرج من عبه قارورة خشبية، وعلقها برقبتي قائلا:

- " إني ورثتها عن اسلافي، وها انا اورثها لك لتورثها أنت بدورك إلى نسلك.. هي سر ستكتشفه بنفسك عندما تفتحها في خلوتك"..

قبلني وقادني إلى العربة وقد أعدها لنا. ودعته مع أمي. رحلت وبجانبي زوجتي، تقودنا الكلاب والبغال على شاطىء دجلة المنساب من الشمال.

* * *

عند العصر، دخلنا "نينوى" من بوابة شامخة مكتظة بعربات عسكر وتجار تقودها خيول، وعربات اخرى تجرها بغال، وقوافل جمال، وحمير مزارعين. كلما توغلنا نحو مركز المدينة، كان الزحام يشتد ونداءات الباعة تعلو ممتزجة بمزايدات نخاس وتهكمات سحرة ومهرجين مع قرود وأفاع وصبايا ذوات وجوه مكشوفة وصدور شبه عارية.

أوقفت العربة، وطلبت من من زوجتي الانتظار. ترجلت تابعاً كلابي تشقّ دربها بصعوبة وسط الحشود. كنت ألتقط كلمة من هنا وعبارة من هناك، وأمكث منصتاً لأحاديث متقطعة كانت تتمتم بها نساء متلفعات بالسواد. بدا لي ما أسمعه غائماً بين وهم وحقيقة. لم أشأ أن أصدق أذني، قلت لعلي ما فهمت. تجرأت وطرحت السؤال على بائع أسلحة وعقاقير فحولة يدعي أنه صنعها بنفسه من جماجم الاعداء. منه سمعت الحقيقة واضحة رنانة كقعقعة سيوفه :

"زعيم الهاربين استطاع هو وعشيرته الاستيلاء من جديد على السلطة. أعلن نفسه امبراطوراً وأبا للشعب وفحلا مخصباً لالهتنا الأم! أما الأمبراطور السابق فقد فر مع قومه وصار زعيماً للهاربين..!!"

تسمرت مشدوهاً جاهداً أن استوعب هذه الحقيقة الجديدة التي ما فكر بها أبي. تشتتت مشاعري بين غمّ وفرح، بين شك ويقين، بين خيبة من أجل أبي وغبطة من أجل نفسي. ها هو إلهي السري قد صار أمبراطورا

وأباً للجميع. الآن سيتحقق أملي بالاستقرار في أرض يقطنها قومي ويحكمها معبودي. لتمحق إلى الأبد خطيئة أسلافي.. لن أظل رحَالا تنبذني مدن وتقودني كلاب وتكبلني عهود ورثتها عن أهلي.

من دون أن أدرك كيف، كنت منساقاً بقوة كلابي التي ما كفت عن الجري والتوغل بين الحشود المتدافعة. وجدت نفسي فجأة أمام باحة كبيرة مطوقة بالعسكر وفي وسطها تجمع كهنة ورجال حاشية يحيطون عرشاً فخما جلس عليه الامبراطور الجديد. قبل ان تتاح لي لحظة تفكير، اندفعت كلابي برعونة ووحشية نحو الأمبراطور وحاشيته. لكن العسكر كانوا أكثر منها سرعة وشراسة فانقضوا عليها ومزقوها بسيوفهم ورماحهم، ثم انهالوا عليّ ركلا وضرباً حتى غبت عن الوعي.

* * *

عندما أفقت كان صوت الحارس يناديني عبر فتحة صغيرة. ناولني صحن حساء وأمرني أن أصمت حتى يأتيني قرار الأمبراطور، وأشار إلى فجوة صغيرة في أرض الزنزانة يمكنني استخدامها لقضاء الحاجة.

لم أكن أدري الوقت ليلا أم نهاراً حينما فتحت القارورة في عتمة الزنزانة. كنت قد نسيتها تماماً حتى فوجئت بوجودها معلقة في رقبتي مختفية تحت بقايا ثيابي التي مزقها العسكر عن بدني كشجرة قضم الجراد وريقاتها.

فقط عندما خرجت تلك الإلهة الخلابة انتبهت إلى البدر يطل من كوة صغيرة في أعلى الجدار. رأيتها متجلية أمامي بفتنتها وسحرها، فشعرت كأن روحي تتسلل من وحشة قبر وخوائه إلى دفء رَحم وخصبه. بعيدا عن عيون الحراس، تعالت أنفاسنا وتمازجت بصرير حشرات وضوء بدر متكىء على قضبان. طفتُ مع أمواج أزمان بلا ملوك ولا آباء ولا كلاب ولا هاربين.

ذات ليلة كنت مستلقياً مع إلهتي قرب الفجوة، عندما تهادت إلي أصوات حمحمات وشهقات كطيور في أعشاشها. دنوت فمي من الفجوة وصرخت :

ـ "من هناك؟ ".

بعد لحظات صمت، سمعت من يصرخ تحت الأرض :

ـ "نعم أسمعك.. من أنت؟! "

أجبت بسرعة:

ـ "أنا سجين.. وأنت؟! "

أتاني الجواب :

"أنا.. أنا أيضا.. أنا.. انا.. انا.. انا.."

لم يكن جوابا متوقعا ابداً.. صدحت كلمة "انا" بعشرات الأصوات، ربما مئات.. أصوات رجال انتشرت تحت الأرض ليعلنوا جميعهم أنهم سجناء مثلي.

عبر قنوات الأرض تبينت الحقيقة المرعبة: زنزانتي محاطة بعدد هائل من زنزانات تحتوي رجالا قابعين مثلي بانتظار مجهول. عبر فجوات أرض مظلمة عابقة بعتق وموت اكتشفنا هوية مشتركة:

إننا سجناء امبراطور قدسناه وعبدناه عندما كان زعيما للهاربين. إننا من ذرية آباء أمضوا دنياهم في تعقب كلاب طائشة.. وإن كلاً منا تزوج أخت الآخر، ولنا أمهات يندبن خيبة ازواجهن عند خرائب الأسلاف!

* * *

لم أدرك كم أمضيت من الزمن عندما فتح الحراس الباب وقادوني مثل كومة لحم ورموني أمام الامبراطور. بعد إعلان غفرانه لخطيئة مشاركتي أهلي في تتبعه عندما كان زعيماً للهاربين، عمدني الكهنة بمياه الخصب الجارية من تمثال إلهتنا الأم. ولكي أتوب عن جميع خطاياي وخطايا آبائي، أمروني أن ألحق الهاربين واتقصى اخبارهم. اقسمت أمام ملكنا وآلهتنا بأني سوف أحرم من بركة خصبهم وأقصى من نسلهم إن لم أخلص في مهمتي بتتبع الهاربين حتى نهايتهم المحتومة.

في الفجر، جلبوا لي زوجتي التي كبرت بطنها في اثناء سجني. اركبونا عربة تجرها بغال وتقودها كلاب وقالوا: ارحل ولتحميك عيون ملكنا وإلهتنا وتبارك صلواتك لهم.

خارج بوابة العاصمة، كانت الأراضي القاحلة مرقطة بأعداد وأعداد من العربات التي تجرها بغال وتقردها كلاب تنهب الدروب نحو آفاق مجهولة. لكني ما ان تلمست قارورتي حتى قررت ان لا اسير في من تلك الدروب، إنما اتجهت بعربتي إلى النهر. عند الشاطىء فككت البغال وتركتها تسير وحدها تابعة الكلاب التي ما كفت عن عراكها من أجل اشياء لا مرئية.

انسابت بنا عربتنا فوق المياه، وعلى ذراعي تغفو زوجتي وتحت إبطي تحيا قارورتي من نبضات قلبي. كان بدر ليلتنا متألقاً بين نجومه ويطوف معنا في سماوات تقودنا إلى سماوات. كان النهر ينحدر في واديه ليمنح خصبه لأراض وأقوام تناسلوا حول ضفافه منذ حقب تاريخ سحيق، تتغير أسماؤهم ووجوههم ولغاتهم وأديانهم إلا أرواحهم تظل تتناسخ خالدة في ذات الأنهار والأطيان ونفحات الريح. تعالى في الفضاء عويل نسوة يندبن غياب المنتظر، وينثرن فوق المياه صواني شموع تنساب نحو شواطىء وخلجان أزلية الجريان.

* * *

صحوت ليكون العويل صفير سيارة إسعاف تمرق في الشارع. وجدت نفسي في غرفتي مضطجعا وحدي، وعبر النافذة كان يأتيني الصفير مخترقا صمت المدينة الغارقة في إغفاءة صبيحة يوم الأحد، ممتزجا بعبق البحيرة القريبة. ليس هناك من أثر لـ (هاجر) غير عطر مسك وبقايا ليلة حمراء!